بؤساء ومحرومون و... مسلّحون!

الى أين ، لبنان ؟

الى أين نظامه ، الى أين الديموقراطية ؟

أسئلة كان يمكن أن ينطلق المراقب في محاولة الاجابة عنها من مناقشات المجلس حول الموازنة ، وقد كانت مناسبة أمام أكثر من نائب لاطلاق التحذيرات ، من هنا وهناك وهنالك ، واحد يتحدث عن الانهيار ، وآخر عن الانفجار ، وما بين هذا وذاك حديث متكرر عن خطر الثورة من أبعد الناس عنها !

لكن حديث المجالس شيء ، وشيء آخر حديث الثورة عن نفسها ... خصوصا عندما تتجلبب الثورة بالرداء الذي كان لها أمس في بعلبك الهرمل .

* * *

اذ ماذا غير الثورة كان هناك ؟

« نظام » والاسلحة مشروعة ، اقوى من اسلحة النظام وأفعل ؟

« ديموقراطية » والزعماء يقسمون ، أمام اللـه والشعب ، بانتزاع حقوق جماعتهم بالقوة اذا لزم الامر ؟

أم تراه نظامنا الديموقراطي لا يفهم غير هذه اللغة : يتلهى بمحاكمة الاقلام ومعاقبة حملتها ، الى أن يهب حملة المسدسات والبنادق والرشاشات والمدافع ــ نعم المدافع ــ رافعين أصوات المطالبة بحقوقهم غير آبهين لقانون الدولة ، ساخرين منها بنسبة ما سخرت هي منهم ، يردون التحدي تحديا ، ويقيمون قبالة العنف عنفا وأقوى ؟

* * *

نعم ، تلك هي الثورة ، ولو لم يطلق رصاصها الا صوب السماء ، وتصفيقا لكلام امام جعل خدمة الانسان وحقوقه وحرياته من خدمة اللـه والصلاة له ...

تلك هي الثورة وليس أغرب ما فيها أنها ثورة الشيعة .

بل لعله من قدر الشيعة ، في عصر الطوائف ، أن تكون طليعة ثورة الجميع ، جميع المناطق وجميع الطوائف وجميع الطبقات ...

أوليس الشيعة طائفة المأساة ؟

أولم ترهف المأساة حسّهم ، عبر العصور، فاكتسبت نفوسهم شفافية لقضية الحقوق السليبة والحريات الضائعة ، كما اكتسبت عقولهم انفتاحا على التقدم وتوقا اليه لا يحد ، فضلا عن طاقة على الاحتمال : احتمال الظلم ، ثم احتمال التضحيات في سبيل التخلص منه والنضال ضد اهله .

ثم ان الشيعة في لبنان اصبحت ، بالتعابير الاقتصادية الاجتماعية الحديثة ، « بروليتاريا الارض » الوحيدة ، أي الطبقة الاكثر استسلاما في ظاهرها والاكثر ثورية في باطنها ... مثلهم ، في مجتمع متخلف غير مصنّع بعد ، مثل الطبقة التي قامت بثورة الصين ، حين كان يبدو ان النظام الاجتماعي هناك مؤبّد والقضايا المطروحة من النوع السياسي الوطني الذي ينحصر الانشغال به في الطبقات الحاكمة ، كظاهره من ظواهر الترف الفكري !

والخطورة ، كل الخطورة في « ثورة الشيعة » هي هذا بالذات : انها تجاوزت القضايا « الوطنية » والسياسية التقليدية ، قضايا لبنانية لبنان وقوميته وعروبته ودستوره ونظامه لتتحول الى ما هو أعمق جذورا وأكثر اتصالا بحاجات الانسان الحياتية ، الى القضية الاجتماعية والاقتصادية ، قضية الحرمان والظلم ، قضية الارض الحقيقية ، الارض التي يطلب منها الانسان ان تطعمه فيجوع ، وأن تسقيه فيعطش ، ثم تطلب هي من الانسان أن يحميها ، فيعجز عن حمايتها أرضا وبيتا عجزه عن حماية نفسه !

وهنا يكمن سر تجاوز « ثورة الشيعة » الخطر الطائفي وتخطيها اياه ...

هي ثورة طائفة ، ولكنها ليست ثورة طائفية . ليست ثورة طائفة على طائفة ، بل لعلها تصبح ثورة طائفة باسم سائر الطوائف كذلك ومن اجلها جميعا : ثورة الطائفة الثائرة لانها تلك التي كانت الاكثر حرمانا ... ليس همّها أن تحكم ، لان الحكم للجميع ، انما همّها ألا يكون الحكم ظلما كله ، ظلما لها ولسواها !

* * *

والان ، مرة أخرى ، الى اين ؟

في اطار التحليل الاقتصادي ــ الاجتماعي ــ الطائفي ، يكتسب كلام النائب « البورجوازي » الماروني الذي تحدث في المجلس عن الثورة أبعاداً جديدة خطيرة : ان النظام اللبناني كانت قاعدته الطبقة المتوسطة، وان هذه في طريق الزوال لان الاغنياء يزدادون ثروة وغنى ، والفقراء يزدادون فقرا ، وعددا كذلك !

حيال ذلك ، ماذا تفعل الدولة ؟

مثل الذي تفعله حيال ... الاسلحة المرتفعة في وجهها ... لا هي تقدر على مكافحة الفقر ، ولا هي تقدر على مكافحة التسلح ، بل لعلها تزيد في هذا وذاك ، ظنا منها أن هذا قد يحميها من ذاك ، فاذا بهما قد يتحدان ضدها ، وعلى أكثر من جبهة ، في زي اجرام حينا ، وفي زي ثورة أحيانا !

وأفجع ما في الامر أن الدولة هي التي تهيىء الفاجعة لنفسها ، ولو جهلت ــ وما أكثر ما تجهل ...

فعنفها هو الذي يولد العنف ضدها !

وعسفها يحرّض على العسف بها !

أما تقاسمها والابناء والاصهار ، والاحباء والخلان، مغانم الحكم وأسلابه ، فهو بالذات، فهو بالذات ما يجعل حلالا أن يتهافت الناس عليها لتقاسم اشلائها ، غدا ، عندما لا يبقى منها ومن نظامها غير الاشلاء ... تفوح فوقها روائح البخور وقد عفنت ، هي كذلك ، ككلام الحكام .

غسان تويني

النهار، ١٨ آذار ١٩٧٤